س١٩/ كَيْفَ كَانَ أَوَّلُ الدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلامِ؟

ج/ كَانَتِ الدَّعْوَةُ أَوَّلًا سِرًّا (١) نَحْوَ ثَلَاثِ سِنِيْنَ، ثُمَّ أُمِرَ ﷺ بِالصَّدْعِ بِهَا جَهْرًا.

(١) ومما يدل علىٰ سريتها في بَدْءِ أمرها ما رواه مسلم برقم (٨٣٢) من حديث عمرو بن عبسة في قصة إسلامه وفيه: فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا فقعدت علىٰ راحلتي فقدمت عليه فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جُرءاءُ عليه قومه، فتلطفت حتىٰ دخلت عليه بمكة... الحديث.[١]

فقولهُ: (مستخفيًا) دليلٌ علىٰ سرية الدعوة في بدء أمرها؛خوفًا من الأعداء الكفرة.

قال ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد" (١/ ٨٦): وأقام ﷺ ثلاث سنين يدعو إلىٰ الله مستخفيًا ثم نزل عليه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤].

أقولُ: وبما أن السِّريَّة كانت في بداية دعوته ﷺ، فهل يكون هذا دليلًا لمن يتكتمون في دعوتهم في عصرنا هذا، ويعقدون الجلسات السرية؟

الجواب: أنَّ هذا لا يصلح أنْ يكون دليلًا لهم؛ لأمور منها:

- أنَّا لسنا في جاهلية، فالحمد لله الإسلام منتشر وظاهر، فنحن في اليمن علىٰ

(١) وانظر "السيرة" لابن هشام (١/ ٣٢٥)، و"السنة" لابن أبي عاصم (٢/ ٤٩٤-٤٩٥) برقم (١٠٧٠)، و"زاد المعاد" (١/ ٨٦)، و"المورد العذب الزلال" (ص٢١٦) لشيخنا النجمي رحمه الله.

سبيل المثال دعوة السلفيين قائمة علىٰ قدم وساق، يدعون إلىٰ الله، ويعلمون كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

- ولا يجدون مضايقات أبدًا، وإنْ وجدوا فإنما يحصل ذلك من أصحاب هذه السرية لا من الدولة، فالفارق واضح جلي بين السرية التي كانت في عهده ﷺ، والسرية التي في عصرنا، ومع هذا فالسرية في عهد النبوة كانت لوقتٍ محددٍ كما تقدم، ثم أُمر ﷺ بالصدع بالدعوة فهي كانت عبارة عن توطئة وتهيئة للصدع بذلك، ونحن في عصرنا نصدع بالدعوة إلىٰ الكتاب والسنة بكل يُسْرٍ، فلماذا السرية؟!

وإننا لو نظرنا بعين الإنصاف إلىٰ السرية عند أهلها في هذا العصر نجدها مباينةً تمامًا للسرية التي كانت في عصر النبوة؛ لأن السرية في عصرنا ليست من أجل الدعوة إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما هي من أجل:

- إزالة حاكم من منصبه، وقلب الحكم وإعطائه لشخص آخر، وعلىٰ إثر ذلك تسفك الدماء، ويقتل الرجال، وترمل النساء، ويُيَتَّمُ الأطفال.

فهذه آثار السرية، فهي إذن من خلال عواقبها ضد الإسلام وأهله، أما السرية في عهده ﷺ فهي لمصلحة الإسلام، وفي عصر جاهلي، ومع هذا فقد حذر ﷺ عن السرية في هذا الباب كما جاء ذلك عند ابن أبي عاصم في "السُّنَّة" (٢/ ٤٩٤-٤٩٥) برقم (١٠٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ

فقال: يا رسول الله، أوصني. قال: «**اعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وأقم الصلاة، وآت الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت، واعتمر، واسمع، وأطع، وعليك بالعلانية وإياك والسِّر**»، وهو حديث حسن، وجوَّد إسناده العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تحقيقه لكتاب "السنة".

وعلماؤنا يحذرون من هذه السريات؛ لأنهم يدركون مخاطرها.

قال شيخنا العلامة أحمد بن يحيىٰ النجمي مفتي عام جنوب المملكة السعودية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الماتع "المورد العذب الزلال" (ص٢١٦): السرية، والتكتم في دعوتهم –يعني الحزبيين- بدون حاجة إليه، فالدولة مسلمة تؤيد الدعوة وتعين عليها، وتضع مرتبات لأهلها، والمجتمع مسلم يؤيد كل دعوة إصلاحية، ويتظافر معها، فما هو الداعي للسرية؛ إلا أن في دعوتهم أمورًا غير تعليم الأحكام الشرعية يريدون التكتم عليها حتىٰ يصلوا إلىٰ مآربهم.اهـ

قال الشيخ حافظ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ سِرًّا أَوَّلَا ... نَحْوَ ثَلَاثٍ مِنْ سِنِينٍ كُمَّلَا

فائدة:

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح الباري" (٨/ ٦٤٤): استدل بعض المالكية بقوله في هذا الحديث: «**يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئتِ لا أغني عنك من الله شيئًا**»، أنَّ النيابة لا تدخل في أعمال البر؛ إذ لو جاز ذلك لكان يتحمل عنها ﷺ

بما يخلصها، فإذا كان عمله لا يقع نيابة عن ابنته؛ فغيره أولىٰ بالمنع. وتُعُقِّب بأنَّ هذا كان قبل أن يعلمه الله تعالىٰ بأنه يشفع فيمن أراد وتُقبل شفاعته؛ حتىٰ يدخل قومًا الجنة بغير حساب، ويرفع درجات قوم آخرين، ويخرج من النار من دخلها بذنوبه، أو كان المقام مقام التخويف والتحذير، أو أنه أراد المبالغة في الحضِّ علىٰ العمل، ويكون في قوله: «**لا أغني شيئًا**» إضمار: إلا إنْ أذن الله لي بالشفاعة.اهـ

قال الشيخ حافظ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَبَعْـدَهَا[1] بِالصَّـدْعِ جَهْـرًا أُمِـرَا ... فَقَـامَ بَـيْنَ الأَقْـرَبِينَ مُنْـذِرَا

حَتَّـىٰ إِذَا جَـاءَ الصَّـفَا وَصَـعَدا ... أَعْـلَاهُ نَـادَاهُمْ بِـأَبْلَغِ النِّـدَا

فَعَـمَّ ثُـمَّ خَـصَّ بِالتَّحْـذِيرِ ... نَـذَارَةً مِـنْ نِقْمَـةِ القَـدِيرِ

وَلَمْ يَكُـنْ أَسْـوَأَ مِـنْ أَبِـي لَهَـبْ ... رَدًّا عَلَـىٰ ابْـنِ أَخِيـهِ المُنْتَخَـبْ

(١) أي: وبعد سرية الدعوة.